تقع في الساحل الممتد من القطيف حتى جنوب الأحساء

جرّه.. المدينة الأسطورة المفقودة

اشتهرت بغناها المفرط الذي أضفى عليها صفات أخاذة

كتب: عبد الخالق الجنبي

في السهل الساحلي الممتد من القطيف شمالاً وحتى أقصى جنوب واحة الأحساء جنوباً كانت تقع أخطر وأشهر مدينة عرفها الجزء الشرقي من الجزيرة العربية وهي المدينة التي أطلق عليها كُتاب الاغريق والرومان اسم «جرّه» واصطلح الباحثون العربَ على تسميتها بـ «الجرهاء» وهناك من أسماها «الجرعاء».

وقد اشتهرت «جرة» بغناها المفرط الذي أضفى عليها صفات أخاذة بدءاً بوصول تجارها محملّين باللبان والبخور والتمور والمرّ وغيرها من الكماليات إلى بابل وبترا واليمن ومروراً بثروتهم التي كانت تضارع ثروة تجار هذه المدن بل لقد ذهب بعض المؤرخين الاغريق إلى أنها كانت أغنى الولايات العربية في شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب وأنّ أهلها كانت لديهم معدات وأدوات كثيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وأنّ منازلهم كانت باهظة التكاليف مطعّمة أبوابها وأسقفها بالعاج والذهب والفضة إلى غير ذلك من أوصاف أخاذة وصفات تخلب اللبّ والعقل.

وكان لكل هذه الصفات البرّاقة التي يسيل لها لعاب الطامعين للثراء فضلٌ كبيرٌ في أنْ تصبح «جرّة» الشغل الشاغل لكل من كتب عن تاريخ هذا الجزء الغالي من بلادنا ولا سيما الباحثون الغربيون الذين شكلت «جرّة» لهم لغزاً كبيراً لم يستطيعوا فك طلاسمه حتى الآن على الرغم من الجهود الكبيرة والكثيرة المبذولة منهم لاكتشاف الموضع الذي كانت تقوم عليه ولكنها كلها باءت بالفشل وان كنا لم نعدم بعض الفوائد منها والتي تفيد في تحديد موضع هذه المدينة العتيدة كما سوف نرى فيما يلي من البحث.

من جهة أخرى فانّ هذه الشهرة التي بلغتها «جرّة» جعلت الكثير من الباحثين المعاصرين يكتب عنها بل وصل الأمر إلى أنْ تدّعيها أكثر من دولة خليجية أو يقوم بعض الباحثين بكتابة بحوث يثبت فيها –اقتساراً– وجودها في هذه الدولة الخليجية أو تلك حسب الرغبات والميول والأهواء ومراعاة حق المضيف وليس حسب ما يفرضه البحث العلمي الموضوعي.

أين تقع مدينة «جرّة»

لم يردنا تحديدٌ دقيق للموضع الذي كانت تقوم عليه مدينة «جرّة» بحيث يقطع الشك باليقين في تحديد المكان الذي كانت تقوم عليه هذه المدينة الهامّة وقد تضاربت أقوال المؤرخين والجغرافيين الاغريق القدماء في تحديد موضعها وان كانوا قد وصفوها ببعض الصفات الطبوغرافية التي سوف تساعدنا ولا شك في التعرف على موضع المكان الذي كانت تقوم عليه هذه المدينة مع تسليمنا بفرضية أنّ هذه المدينة يجب ألا تخرج عن حدود المساحة الممتدة من القطيف شمالاً إلى جنوب واحة الأحساء جنوباً مروراً بالعُقَير.

وفي عصرنا الحديث حدد الباحثون الغربيون مثل شبرنغر وبيبي ونغيل جروم عدة مواضع رشحوها لأن تكون المكان الذي كانت مدينة جرة تقوم عليه وهذه المواضع هي: القطيف والأحساء والعُقير وتاج ورأس القُرَيّة.

الا أنّ بحثاً ميدانياً موثّقاً قام به د. جيوفري بيبي عن العُقير ونشره في كتابه القيّم «البحث عن دلمون» أكّد بما لا يدع مجالاً للشك أنه لا يوجد آثار مدينة ترجع إلى عصر ما قبل الاسلام في ميناء العُقير وأنّ آثار المدينة الموجودة في هذا الميناء تعود إلى العصور الاسلامية الأولى واللاحقة لها وبالتالي فقد استبعد تماماً أنْ تكون العُقير هي مدينة جرة.

وكما استبعدت العقير عن كونها موضع مدينة «جرّة» المفقودة فقد تم استبعاد «تاج» على الرغم من أنّ مدينتها الأثرية تعود إلى العصور الأولى قبل الميلاد وذلك لأنّ المقاييس والقياسات التي ذكرت لسور مدينة جرة البالغ خمسة أميال عند بطليني لا تنطبق على سور مدينة تاج الذي لا يتجاوز الأميال الثلاثة؛ كما أنّ اصرار استرابو وبطليني على وجود «جرّة» عند خليج مائي عميق هي صفة أساسية تفتقد اليها مدينة تاج التي كانت تقع على حافة بحيرة ضحلة أصبحت الآن سبخة ملحية وفوق كل ذلك فانّ تاج قد ورد اسمها مقرونا مع «جرّة» في خريطة بطليموس في الموضع نفسه الذي تقوم عليه تاج اليوم وأسماها بطليموس في خريطته «فيغا» فهي «فاج» الاسم الأصلي لهذه المدينة على اعتبار أنّ السكان الأصليين في المنطقة لا يستعملون حرف «الثاء» في نطقهم ويستعيضون عنه بحرف «الفاء» وهو ما يلاحظ في لغة أهل القطيف الذين يقولون «فلافة وفلافين» بدلاً من «ثلاثة وثلاثين» ويقولون أيضاً «فاج» حتى اليوم بدلاً من «تاج».

أسباب الاستبعاد

ولنفس الأسباب التي جعلتنا نستبعد كون تاج هي «جرّة» فهذه الأسباب أيضا تجعلنا نستبعد القطيف التي تقع على ساحل البحر مباشرة بعكس «جرّة» التي ورد في الأوصاف القديمة الخاصة بها أنها تبعد عن الساحل ٢٠٠ استاديون أو ٦٠ ميلاً؛ كما أنّ القطيف هي الخط أو «» التي ذكرها المؤرخ بوليبيوس «٢٠٨–١٧٦ق.م» وقال عنها أنها تقع على الخليج الفارسي وأنها تُعد المنطقة الثالثة التي تُنسب إلى الجرّهيين وذكر أنّ بها قرى وأبراج تشير إلى أنهم كانوا يزرعون هذه المنطقة كما أن القطيف لا يُعرف عنها أنها تقع على خليج عميق لأنّ خليج القطيف معروفٌ عنه أنه ضحلٌ جداً وقبل هذا كله فانّ القطيف قد وردت باسمها «قطيف» أو «قطوف» في نصّ يمني اكتشف حديثاً ويرجع تاريخه إلى القرن الثالث بعد الميلاد وهو المعروف بـ«نص شرف الدين ٤٢» المدوّن في عهد الملك الحميري شمر يَهْرَعَش بن ياسر يَهْنَعَم – حكم بين «٢٧٥ – ٣٠٠م» تقريباً – وقد جاء في هذا النص أنّ قائدين لهذا الملك قاما بغزو أرض مالك ملك أسد «نجد» فتقدمت نحوها واتجهت نحو ارض قطوف «القطيف» حتى بلغت موضع كوكبن «كويكب» ثم «مُلك فارس وأرض تنخ» أي الأرض التابعة للفرس وارض تنوخ يعني بها هَجَر وقد دون القائدان هذا النص بعد عودتهما من ذلك الغزو ولأننا نعرف يقيناً أنّ القطيف كانت معروفة باسمها هذا قبل أنْ ترد في نص شرف الدين٤٢ بزمن طويل لأنّ قائدي شمر لم يكونا ليتجشما كل هذا العناء لو لم يكن مسمى القطيف قد وصل إلى بلاد شمر باعتبارها مدينة متحضرة بها كل وسائل العيش الكريم وهو ما جعله يأمر قائديه باحتلالها ولأنّ حكم شمر يهرعش كان في الربع الأخير من القرن الثالث الميلادي وأنّ مدينة جرّة قد وردت باسمها هذا في خريطة بطليموس التي رسمها عام ١٥٠ للميلاد أي قبل كتابة نص شرف الدين٤٢ بقرن ونيّف وهي ليست بالمدة الطويلة التي تفصل بين صنع الخريطة وكتابة نص شرف الدين٤٢ ولأننا قلنا أنّ ورود اسم القطيف في نص شرف الدين٤٢ يدل على أنها كانت مشهورة بهذا الاسم قبل هذا النصّ بزمن طويل فهذا يدلّ على أنّ جرة والقطيف كانتا متعاصرتين وأنّ كلاً منهما كانت معروفة باسمها مما يجعلنا نستبعد أن تكون القطيف هي جرة.

وأما رأس القرية فانّ ما جعل الباحثين الغربيين يشكون في أنها قد تكون موضع مدينة «جرّة» هو هذا التشابه اللفظي بين كلمتي «جرّة» و«القُرَيّة» خصوصاً اذا نُطقت القاف في «القُرَيّة» مثلما ينطق المصريون الجيم وكذلك اكتشاف بعض المنقبين منهم لنظام ريّ ذي قنوات متطورة جداً مما جعل هؤلاء الباحثين يعتقدون أنها مزارع مدينة «جرّة» غير أنهم لم يستطيعوا اكتشاف أي آثار لأي مدينة في رأس القرية باستثناء قنوات الري هذه مما يجعل هذه المنطقة تفقد أهم وأكبر عنصر في تحديد مدينة «جرّة» وهو وجود آثار لمدينة يبلغ سورها خمسة أميال تقع على خليج عميق ولو افترضنا –جدلاً– أنّ رأس القريّة هي موقع مدينة «جرّة» لما استقام لنا الأمر لأنّ رأس القرية وكما هو واضح من اسمه هو عبارة عن رأس برّي داخل في البحر وأقرب خليج بحري لهذا الموضع هو ما يُعرف في السابق بخليج ظلوم وحالياً بخليج شاطيء نصف القمر وهو وان كان فيه بعض العمق الا أنه لا يقع مباشرة عند رأس القرية بل إلى الشمال منها بمسافة أربعة أميال تقريباً.

وعلى ذلك فانه لم يبق لنا الآن من المواضع الخمسة المرشحة لتكون موضعاً لمدينة «جرّة» سوى واحة الأحساء والتي رشحها أكثر من باحث غربي لذلك بجدارة والذين استبعدوها منهم انما فعلوا ذلك لأنهم كانوا قد قاموا بمسح جوّي بحثاً عن آثار جدران مدينة قديمة في الصحاري والسواحل مثل تاج والعُقير ورأس القُرَيّة فوجدوا فيها آثار مدن كبيرة بعكس واحة الأحساء مما جعلهم يظنون أنّ ما رأوه من آثار تلك المدن هي بقايا أطلال «جرّة» ولم يدر في خلدهم أنّ وجود ملايين النخيل والأحراش في واحة الأحساء وتعاقب الاستيطان